قضية الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث في المصادر الإسلامية

محمود الحسن*

قضية الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث مهمة للحياة الصحية و بقاء الجنس البشري في الكرة الأرضية , و قد ظهرت هذه القضية بهذا العنوان في أوائل القرن العشرين المنصرم و تكثف الاهتمام بها خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي, إلا أن المتدبر لآيات القرآن الحكيم و المتصفح للموسوعات الحديثية و الغواص في بطون الكتب الفقهية الضخمة و المهتم بتراث العلماء الإسلاميين القدماء يجد أن الإسلام قد بدأ حركة الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث بآيات كتابه البليغة و أحكامه المتينة و ضوابطه الراسخة و أن علماء الإسلام اهتموا منذ أكثر من عشرة قرون بالقضية حيث سجلوا في كتاباتهم ما يشير إلى المفهوم الاصطلاحي للبيئة و عرضوا للعلاقة بين الإنسان و البيئة, و المتتبع لسلوك المسلم الملتزم بالآداب الإسلامية و المتحلى بالأخلاق الفاضلة و المتمسك للقيم الإيمانية يرى أنه دائما يحرص على الحفاظ على البيئة و يتنحى من جميع النشاطات التي تؤدي إلى التلوث و فساد البيئة الصحية و يجتنب مما يوذي البشرية و يعتقد أن هذا من متطلبات إيمانه و جزء من شعاره الديني ووسيلة للنجاة من النار, فالإسلام بإيقاظ هذا الشعور القوي في المسلم لعب دورا بالغا في الحفاظ على البيئة و امتناعها من جميع أنواع التلوث .

وهذا البحث يمر بالنصوص من كتاب الله و سنة رسوله- صلى الله عليه و سلم- و التراث الإسلامي التي رسمت الطريق و بنت القواعد الأساسية للحفاظ على البيئة و الإيضاح من خلالها دور الإسلام الرائد في قضية حفظ البيئة.

---

* المحاضر بقسم اللغة العربية و الدراسات الإسلامية بجامعة شيتاغونغ

1- **البيئة و التلوث :**

قال صاحب " المعجم الوجيز " و المعجم الوسيط " : البيئة المترل و الحال. و_ : و ما يحيط بالفرد أو المجتمع و يؤثر فيهما. يقال : بيئة طبيعية , و بيئة اجتماعية ، و بيئة سياسية.(1)

والبيئة في الاصطلاح الحال الذي يتكون من كل ما في هذه الأرض من الأشجار و الغابات و الأنهار و البحار و النور و الهواء و النباتات و الحيوانات و ما اختلقه الإنسان.

فالبيئة إذن على نوعين : بيئة جامدة و بيئة حيوية ، و العناصر التي تحتوي عليها البيئة :

- الأدوات الجامدة مثل : الشمس ، الماء ، الأرض ، الغاز و غيرها
- النباتات و الأشجار
- المستخدم لها من الإنسان و الحيوانات (2)

والتلوث مأخوذ من اللوث ، لوث تلويثا الشيء : مرسه، و_ التبن بالقت : خلطه به ، و _ ثيابه بالطين : لطخها به ، و _ الماء : كدره و _ الأمر : لبسه، (3)

و المراد بتلوث البيئة تكدر نقائها و تعفن صفائها و فساد طبعها بكثرة الأدخنة و قتل الحيوانات و قطع الأشجار و سد الأنهار و إحداث الضوضاء و غيرها.

2- **القرآن الحكيم و البيئة:**

إن القرآن الحكيم اهتم اهتماما بالغا بقضية البيئة حيث أكد على إعمار الأرض و حمايتها من التلوث و رعايتها و أن هذا الموضوع ورد على نحو خمس مائة موضع بالقرآن الكريم (4) و الله سبحانه و تعالى من على الإنسان بالاستعمار قائلا:

" هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه "(5)

إن ضوابط الحفاظ على البيئة التي تستخرج كثيرة و أهمها كما تلي:

- الحفاظ على المصادر الطبيعية من أهم شروط الحفاظ على البيئة,(6)و قد دعا القرآن الكريم إلى الحفاظ عليها و في مقدمتها الماء و قد أشارت العديد من الآيات القرآنية إلى أهمية الماء و منها قوله تعالى: " و و جعلنا من الماء كل شيء حي أفلا

يؤمنون"7 و قوله تعالى: " و هو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء..." 8 و تأكيدا لأهمية الماء فقد ورد ذكره في القرآن في أكثر من ستين موضعا و قد وصفه الله تعالى بأنه طهور أي طاهر في ذاته و مطهر لغيره, و من ثم يجب الحفاظ على الماء .9

- من أبرز الضوابط التي تحكم سلوك المسلم في تعامله مع البيئة دعوة القرآن الإنسان إلى الاعتدال و التوسط في كل شيء . قال تعالى: " و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا" 10 و لا شك في أن هذا الاعتدال ينصرف إلى علاقة الإنسان ببيئته التي تعاني اليوم من تطرق الإنسان في تعامله معها و استتراف مواردها و سوء استغلالها.
- ومن هذه الضوابط أيضا النهي عن الإسراف و الإفساد في الأرض و هو ما نجده في العديد من الآيات و منها قوله تعالى: " و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " 11 و قوله تعالى: " و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما" 12 و قوله تعالى: " يا قوم اعبدوا الله و ارجوا اليوم الآخر و لا تعثوا في الأرض مفسدين" 13 و قوله تعالى: " و لا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين "14
- إن الحفاظ على الجبال و الدواب و الأشجار و غيرها من العناصر الطبيعية أهم مستلزمات الحفاظ على البيئة, و من هنا نرى القرآن الحكيم يمجد هذه العناصر مشيرا إلى حفظها و استخدامها في صالح الإنسانية و عدم تضييعها. قال تعالى: "ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات و من في الأرض و الشمس و القمر و النجوم و **الجبال و الشجر و الدواب** و كثير من الناس " 15 و قال تعالى : " و الجبال أوتادا" 16 " و الجبال أرساها" 17 " و جعل لكم من الجبال أكنانا" 18 و تكلم الله سبحانه و تعالى عن الأنعام التي أنعمها على عباده : " و الأنعام خلقها لكم فيها دفء و منافع و منها تأكلون و لكم فيها جمال حين تريحون و حين تسرحون و

تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها و زينة و يخلق ما لا تعلمون."19

3- **السنة النبوية:**

قد تضمنت السنة النبوية الشريفة الكثير من النقاط التي تلفت نظر المسلم إلى الاهتمام بأمر البيئة , و في هذه السطور نسرد أهم هذه النقاط :

* قد حث الرسول – صلى الله عليه و سلم – على غرس الأشجار و الزروع و حمايتها, و عدم قطعها أو حرقها لغير مصلحة عامة, و قد ربط الرسول – صلى الله عليه و سلم – الغرس و الزرع بالأجر. و الأحاديث في الباب كثير, و بعضها في التالي:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ 20

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ فَقَالَتْ بَلْ مُسْلِمٌ فَقَالَ لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ 21

و الحديث البليغ الذي يحث المسلمين على الغرس قوله – عليه الصلاة و السلام- " إذا قامت القيامة و في يد أحدكم فسيلة فليغرسها" فالإنسان مطالب بغرس الأشجار في أي وقت من الزمان , و حتى آخر لحظة في حياته. و الرسول – صلى الله عليه و سلم – لم يحثنا فقط على زرع الأشجار و إنما حثنا أيضا على القيام بحفظها و الصبر عليها كما جاء في الحديث التالي:

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "مَنْ نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ عَلَى حِفْظِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا حَتَّى تُثْمِرَ كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُصَابُ مِنْ ثَمَرَتِهَا صَدَقَةٌ عِنْدَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ 22

شجع الرسول – صلى الله عليه و سلم- على إحياء الموتى و إعمار الأرض و قرر جائزته أنه يملك الأرض المزروعة,

قَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ " حَدَّثَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدٍ يَعْنِي ابْنَ إِسْحَقَ عَنْ يَحْيَى بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ** وَذَكَرَ مِثْلَهُ قَالَ فَلَقَدْ خَبَّرَنِي الَّذِي حَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَرَسَ أَحَدُهُمَا نَخْلًا فِي أَرْضِ الْآخَرِ فَقَضَى لِصَاحِبِ الْأَرْضِ بِأَرْضِهِ وَأَمَرَ صَاحِبَ النَّخْلِ أَنْ يُخْرِجَ نَخْلَهُ مِنْهَا قَالَ فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُضْرَبُ أُصُولُهَا بِالْفُؤُوسِ وَإِنَّهَا لَنَخْلٌ عُمٌّ حَتَّى أُخْرِجَتْ مِنْهَا وعَنِ ابْنِ إِسْحَقَ بِإِسْنَادِهِ وَمَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ قَوْلِهِ مَكَانَ الَّذِي حَدَّثَنِي هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَأَنَا رَأَيْتُ الرَّجُلَ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ النَّخْلِ 23

- قد وردت كثير من الأحاديث على حماية الحيوانات كما أخرج البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّح 24

والنبي – صلى الله عليه و سلم- نهى عن أكل كل ذي ناب و قتله كما أخرج مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ *25 و قد نهى أيضا عن قتل الحيوانات و الطيور لغير منفعة و أن تتخذ الحيوانات مرما أو هدفا أو لعبا و لهوا, كما منع عن إيذائهن , أخرج أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ 26

و قصة نجاة امرأة فاجرة بسبب إسقاء كلب مما تشير إلى اهتمام الدين بالحيوانات , أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا 27 و في عكس ذلك امرأة متدينة دخلت النار لمنع الهرة عن الطعام كما في الحديث:

عن أبي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا أَوْ هِرٍّ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا 28

- وردت الأحاديث في حفظ المياه و النهي عن تلويث المياه بالبول أو البراز , و ما ينسحب على البول و البراز يمكن أن ينسحب على جميع الملوثات الأخرى التي تضر بصحة الإنسان و الحيوان و بقية المخلوقات, عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ 29

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ 30

- قد نبه النبي – صلى الله عليه و سلم – المسلمين إلى العناية بحفظ أطعمتهم و أشربتهم لكي لا تتلوث أو تتعرض للتسمم, فنهى عن التنفس في آنية الشراب او النفخ فيها , لئلا تنتقل الجراثيم المعدية للآخرين و الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ 31
- عد النبي – صلى الله عليه و سلم – حماية البيئة من التلوث شعبة من شعب الإيمان , يجسد ذلك الحديث التالي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْإِيمَانُ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ بَابًا أَرْفَعُهَا وَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ 32

و لا شك في أن إماطة الأذى عن الطريق يعني مواجهة تلوث البيئة بكل أشكاله و تطهير البيئة التي يعيش فيها المسلم من كل ألوان النجاسات. و إذا كانت الأديان قد جاءت لتحقيق السعادة للناس فإن و من أشكال هذه السعادة أن يعيش الإنسان في بيئة نقية . و من هذا

يطالب الإسلام أتباعه بالتطهير و يحثهم على النظافة باعتبارها شعبة من شعب الإيمان. و يدعو إلى حماية البيئة من التلوث انسجاما مع هذا الإيمان. 33

- قدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – تعريف المسلم في حديث بليغ و هو:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهم عَلَيْه وَسَلَّمَ **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِه وَيَدِه** وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ 34

فهذا التعريف عام و شامل لكل نواحي الحياة ومن أهمها ناحية البيئة، فالمسلم على حسب هذا الحديث النبوي الشريف لا يفعل فعلا يفسد البيئة و يوذي البشرية ، بل هو دائما يكون يقظا عن بيئته و يحميها عن التلوث.

4- الفقه الإسلامي:

لم يقتصر التراث الإسلامي في معالجته لقضايا البيئة على الجانب النظري ، و إنما شهد أحكاما فقهية حول تلوث البيئة. 35 و يخضع الحكم على مدى الضرر الناتج من التلوث بالدخان إلى نوعية مصدره ، و الفقهاء من أتباع مالك يصنفون الضرر إلى صنفين :

ضرر قائم ، و ضرر مستجد. اما الضرر القائم فينقسم إلى:

1- أضرار ناتجة من أنشطة استقرت في منطقة ما قبل غيرها من الشغالات ، و يحمع الفقهاء على إبقاء مصادر هذه الأضرار لأحقيتها على غيرها لأنها ضرر دخل عليه

2- أضرار ناتجة من أنشطة بدأت في منطقة سكنية ، أي بعد استقرار الجيرة المحيطة بها ، و مضى عليها وقت طويل قبل أن يشكو منها سكان المنطقة، و تحكم هذه الحالة قاعدتان :

الأولى : وقف الأنشطة المسببة للتلوث إذا كان ما ينتج عنها يؤذي إلى حدوث إتلاف و ضرر شديد. و من أمثلة الأدخنة التي ذكرها الفقهاء في هذا المقام : دخان نار الحمامات و الأفران,

الثانية : الإبقاء على الأنشطة المسببة للتلوث إن كان الضرر الناتج عنها ضئيلا ، و يمكن التكيف معه ، مثل دخان المخابز و الدخان الناتج عم مطابخ البيوت.

و قد شهد الفقه الإسلامي أحكاما فقهية بمنع أسباب تلوث البيئة ، فقد سئل ابن القاسم (المتوفى عام 191 الهجري) عن أحقية جيران أحد الأفراد ، أراد أن يبني حماما و فرنا و طاحونا فوق أرض فضاء ، أن يمنعوه إقامتها ، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك ، ما دام سيسبب لهم هذا العمل ضررا بليغا .

قد سئل ابن القاسم أيضا عن حداد أراد أن يبني كورا أو فرنا لصهر الذهب و الفضة أو يحفر بئرا أو مرحاضا ، أو يبني طاحونا قرب حائط الجيران ، فأفتى أن من حق جيرانه منعه لما يسببه لهم من ضرر

5- البيئة في تراث علماء المسلمين الأوائل:

قد تناول علماء المسلمين قضية البيئة في كتاباتهم منذ أكثر من عشرة قرون ما يشير إلى المفهوم الاصطلاحي للبيئة و عرضوا للعلاقة بين الإنسان و البيئة ، بل أن ابن خلدون قد أشار إلى التوازن و التكامل بين عناصر و مكونات النظام البيئي الذي يطلق عليه علماء الغرب (النظام الايكولوجي).

و قد استخدم علماء الإسلام الأوائل كلمة البيئة بمفهومها الاصطلاحي منذ القرن الثالث الهجري ، فيعد ابن عبد ربه – صاحب العقد الفريد- هو أقدم من نجد عنده المعنى الصطلاحي للكلمة في كتاب (الجمانة) , أي الإشارة إلى الوسط الطبيعي (الجغرافي و المكاني و الأحيائي) الذي يعيش فيه الكائن الحي ، بما في ذلك الإنسان و للإشارة إلى المناخ الاجتماعي (السياسي و الأخلاقي و الفكري) المحيط بالإنسان.

و قد كانت العلاقة بين الإنسان و البيئة من الموضوعات الرئيسية التي اهتم العلماء و الرحالة العرب و المسلمون و سجلوها في كتاباتهم ، و كان حديث العلماء الأوائل عن البيئة و علاقتها بالإنسان ياتي في سياق تناولهم لعلم الجغرافيا. فنجد إسارات لهذه العلاقة عند كثير من العلماء العرب الذين كتبوا في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان مثل المسعودي في" كتاب التنبيه " و المقدسي في " أحسن التقاسيم " و ابن رسته في كتاب "الاعلاق النفسية " و ابن خلدون في " المقدمة ".

و يعرض المسعودي لتأثير البيئة على أخلاق الناس و أمزجتهم و يرى أن المناكق التي تتوافر فيها المياه ينعكس فيها تأثير الرطوة في خلق الناس ، و إذا لم يوجد الماء يسود تأثير الجفاف في اخلاق و أمزجة البشر. و يسجل المسعودي تأثير المناخ على الإنسان عند أهل الربع الشمالي من العالم فيقول : (و هم الذين بعدت الشمس عن سمتهم ، من الواغلين في الشمال كالصقالية و الأفرنجة و من جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد و الرطوبة و تواترت الثلوج عندهم و الجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم و جفت طبائعهم و توعرت أخلافهم)36

و هذه العلاقة بين الإنسان و البيئة يسجلها أيضا الفقيه العربي ابن فضلان الذي تجول في بلاد الترك و الصقالية و الروس ، حيث أشار إلى تأثير البيئة على النشاط الاقتصادي فقد وصف مشاهداته و ملاحظاته التي ضمتها بعد ذلك (رسالة فضلان) و فيها نجد ربطا واضحا بين طبيعة البيئة ذات البرودة الشديدة و بين انماط الحياة الاجتماعية فيها ، حتى ان شدة البرد لا تؤثر فقط على أساليب السكان في التغذي و اختيار الملابس و الاهتمام بإيقاد النار بل يؤثر ايضا على حركة التعامل الاقتصادي فيما بينهم ، فتصيبها بما يشبه الركود فيقول : " و لقد رأيت لبرد هوائها بان السوق بها و الشوارع لتخلو ، حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع و الأسواق فلا يجد أحدا ، و لا يستقبله"37

و قد قدم ابن خلدون اسهامات جليلة في مجال العلاقة بين البيئة و الإنسان مما يجعله يقترب في آرائه من العلماء المحدثين في الايكولوجيا الثقافية. قد اعتبر ابن خلدون البيئة الجغرافية دعامة مهمة لمختلف الظواهر الاجتماعية ، كما أنه قد تميز بقدرة فائقة على ربط المشاهدات الحسية بالقضايا النظرية العامة في هذا المزان لتأكيد الأثر الغعال للعوامل البيئية على العوامل الثقافية في المراحل الأولية للاجتماع البشري ، إلى الحد الذي يجعل من ابن خلدون رائدا للحتمية البيئية قبل دعاتها في الغرب بأربعة قرون — كما يرى الأنثربولوجي هاريس — فضلا عن إظهار التفاعل بين بين النوعين من العوامل في المراحل

العمرانية لهذا الاجتماع ، مما يجعله يقترب في آرائه من العلماء المحدثين في الايكولوجيا الثقافية.

و يؤكد ابن خلدون على معنى الإنسان ككائن ثقافي اكثر من معناه ككائن عضوي ، فيقول : عن الإنسان ابن عوائده و مألوفه لا ابن طبيعته و مزاجه ، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا و ملكة و عادة تنزل منزلة الطبيعة و الجبلة ، و اعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا .38 فهو يدعونا غلى استقراء نوعيات مختلفة من المجتمعات البشرية لنلاحظ الفرق بين من يتحولون في القفار و بين من يستقرون في المدن. و يربط ابن خلدون بين البيئة و النشاط الاقتصادي ، فالبيئة عنده مكان تتوفر فيه إمكانات معينة ، الإنسان وحده هو المهيأ للاستفادة من هذه الإمكانات و احداث التغيرات فيها بحسب ما تفتضيه ظروفه في المعاش و العمران البشري فالإنسان يمكن أن يستفيد من الأرض فيزرعها أو يكتفي برعي الحيوانات فيها أو يقيم عليها المدن بطرفها و مرافقها ، و يمكن ان يستفيد من الحيوان الوحشي بافتراسه و أخده برميه من البر أو البحر. و من الحيوان الداجن باسخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأغنام و الحرير من دوده و العسل من نحله ، و يستفيد من النبات بالقيام عليه و إعداده لاستخراج ثمرته ، و كذلك المعادن و سائر القوى و المظاهر الطبيعية التي يمكن أن تقوم عليها العلوم و الصنائع.39

و تأخذ البيئة عند ابن خلدون أوصافا عدة تعبر عن خاصية كل نوع منها ، غهو يتحدث عن المعمور من الأرض و عن الخلاء و القفر و التلول البشرية و العمرانية لها يتحدث عن المعتدل و المتطرف من الأقاليم ، و العامل المناخي أساسي في تحديد قابلية البيئة لمعيشة الغنسان و تطوره اجتماعيا ، و كان هذا هو اللرأي الشائع بين الجغرافيين العرب.

و على الرغم من اعتراض ابن خلدون على هذا الاعتقاد إلا ان تأثيره بهذه الحتمية البيئية كان واضحا حتى في عناوين بعض فصول المقدمة مثل (في المعتدل من الأقاليم و المنحرف و تاثير الهواء في ألوان البشر و الكثير في احوالهم) و مثل (في أثر الهواء في

أخلاق البشر) و يقدم لذلك تفسيرا يقوم على نظرية الاخلاط التي كان يؤمن بها العلماء و الأطباء في ذلك الوقت، فبالنسبة للأقاليم الشديدة الحرارة تتأثر مكونات البيئة كاغة بفقد كميات الرطوبة الداخلة في تكوينها ن " لأنه إذا افرط الحر جفت المياه و الرطوبات ، و فسد التكوين في المعدن و الحيوان و النبات ، إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة.40

و فيما يتعلق بالحفاظ على الحياة البرية و هي إحدى القضايا الرئيسية في مجال البيئة اليوم ، اهتم علماء المسلمين الأوائل بهذا الجانب فقد عرض ابن طفيل في قصته المشهورة " حي ابن يقظان " رؤية فلسفية اخلاقية حول الإنسان ببيئته و أهمية الحفاظ على الحياة البرية ، فيرى أن الأخلاق الحميدة هي التي لا تعترض الطبيعة في سيرها و التي لا تحول دون تحقيق الغابة الخاصة بالموجودات ن فمن طبيعة الفاكهة مثلا أن تخرج من زهرها ثم تنمو و تنضج ثم تسقط نواها على الأرض ليخرج من كل نواة شجرة جديدة ، فإذا قطف الإنسان هذه الثمرة قبل أن يتم نضجها فإن عمله هذا يعد بعيدا عن الأخلاق لأنه يمنع النواة التي لم يتم نموها و نضجها بعد أن تحقق غايتها في هذا الوجود و ذلك بغخراج شجرة من نسلها.41

الهوامش:

1- المعجم الوجيز، دمشق: مجمع اللغة العربية ، ص 66 و المعجم الوسيط، دهلي: دار الاشاعت ، ص 75

2- *شادارن بيغان* (العلوم العامة)، دكا: الجامعة المفتوحة البنغلاديشية برنامج إس إس سي ، ص 3/3

3- لويس معلوف. المنجد في اللغة و الأعلام ، بيروت: دار المشرق (الطبعة الخامسة و الثلاثون 1996) ص 738

4- محمد سيد طنطاوي، " الأديان تدعو إلى الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث" ، القاهرة: جريدة الأهرام اليومية بتاريخ 22-6-1997

5- القرآن : 11 :61

6- أ. أحمد محمد يونس ، الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث في تاريخ الفكر الاقتصادي الإسلامي ، القاهرة: المؤتمر الدولي للتاريخ الاقتصادي للمسمين ج 2 ص 30

7- القرآن : 21 : 30

8- القرآن : 11 : 7

9- أ. أحمد محمد يونس ، الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث في تاريخ الفكر الاقتصادي الإسلامي ، القاهرة: المؤتمر الدولي للتاريخ الاقتصادي للمسمين ج 2 ص 30

10- القرآن : 2 : 143

11- القرآن : 7 : 31

12- القرآن : 25 : 67

13- القرآن : 29 : 36

14- القرآن : 28 : 77

15- القرآن : 22 : 18

16- القرآن : 78 : 7

17- القرآن : 79 : 32

18- القرآن : 16 : 81

19- القرآن : 16: 5-8

20- الإمام البخاري ، صحيح ، بيروت: دار ابن كثير اليمامة، (1407- 1987 ط الثالثة) كتاب الادب رقم الحديث : 5553 ، ج 5 ص 2239

21- علي بن أبي بكر الهيثمي ، مجمع الزوائد ، بيروت : دار الكتاب العربي (1407) ج4 ص 68

22- الإمام البخاري ، صحيح ، بيروت: دار ابن كثير اليمامة، (1407- 1987 ط الثالثة) ج2 ص 823

23- الإمام البخاري ، صحيح ، بيروت: دار ابن كثير اليمامة، (1407- 1987 ط الثالثة) ج3 ص 1099

24- الإمام البخاري ، صحيح ، بيروت: دار ابن كثير اليمامة، (1407- 1987 ط الثالثة) : كتاب الجهاد و السير رقم الحديث : 2796 4283، ج 5 ص 2103

25- الإمام أبو داود ، سنن، بيروت : دار الفكر ، ج 3 ص 23

26- الإمام مسلم ، صحيح ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ج4 ص 1761

27- الإمام مسلم ، صحيح ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ج 4 ص 2023

28- الإمام أبو عبد الله الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، بيروت : دار الكتب العلمية ، (1411 -1990) ج 1 ص 273

29- الإمام مسلم ، صحيح ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ج 1 ص 235
30- الإمام البخاري ، صحيح ، بيروت: دار ابن كثير اليمامة،: (1407- 1987 ط الثالثة) كتاب الادب رقم الحديث : 5553 ، ج 5 ص 2133
31- الإمام مسلم ، صحيح ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ج 1ص 63
32- الترمذي في سننه: الأشربة رقم الحديث : 1810
33- محمد سيد طنطاوي، " الأديان تدعو إلى الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث" ، القاهرة: جريدة الأهرام اليومية بتاريخ 22-6-1997
34- الإمام محمد بن عيسى الترمذي ، سنن، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ج 5 ص 17
35- أ. أحمد محمد يونس ، الحفاظ على البيئة و حمايتها من التلوث في تاريخ الفكر الاقتصادي الإسلامي ، القاهرة: المؤتمر الدولي للتاريخ الاقتصادي للمسمين ج 2 ص 30
36- أحمد فؤاد باشا ، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، القاهرة: دار المعارف (1984) ص 111
37- سامي الدهان (المحقق)، رسالة ابن فضلاني، دمشق: المجمع العلمي العربي (1959) ص 85
38- فتحية محمد إبراهيم و مصطفى حمدي الشنواني ، الثقافة و البيئة، الرياض: دار المريخ ص 46-48
39- المرجع السابق ص 49-50
40- ابن خلدون ، المقدمة ،القاهرة : المطبعة الأزهرية (1930) ص 23 و ما بعدها
41- علي السكري ، البيئة من منظور إسلامي، الاسكندرية : منشأة المعارف (1995) ص 67